لوحة موسيقية

بقلم محمد عبد الله الشفيق

الجمعة ـ ابريل ـ ١٩٦١

استطيع(*) ان اؤكد دون وجل او تردد ان نصف اللائي حضرن الحفل السيمفوني الليلة لم يفهمن ما سمعن .. لم يفهمن ديثور جاك.. ولم يفهمن باخ بالطبع .. يا للرؤوس الجميلة التي ما زالت تترنح من كتل العطر ومكواة الحلاق .. ازواجهن فقط هم الذين يحاولون فهم هذه الموسيقى .. ثمة خدعة كبرى تتم تحت سقف الاوبرا مساء كل جمعة خدعة لو علم بها بيتهوفن لاضيفت الى نكباته نكبة اخرى ، ولو علم بها تشايكوفسكي لكتب سيمفونية حزينة اخرى . والشاعر ت.س . اليوت لم ينس التحذلقات في قصيدته « بروفروك » فحكى لنا كيف انهن يرحن ويجئن في القاعة متحدثات عن ميخائيل انجلو !

*

الساعة التاسعة مساء .. وبعد ربع ساعة على وجه التحديد ستعزف الموسيقى ، ونحن الان لم ندخل بعد ونجلس على المقاعد القرمزية الناعمة ، ما زلنا في الصالة الضخمة ، بعضنا يقف بجانب الاعمدة ، والذي يقف بجانب احد الاعمدة لا شك يقف وحده ، ولا شك ايضا انه خجول ، انه يكتفي بالتطلع الى الاخرين .. واه من الاخرين .. يا لهم من اشخاص يثقون بانفسهم فيقفون في وسط الحلبة ، في وسط القاعة يتحدثون .. يتحدثون في ثقة زائدة .. يتحدثون في كل شيء الا الموسيقى !

في الحجرة اليمنى يجلس بعض الرجال والنساء . الحديث يدور بينهم فيما يشبه الهمس . وفي الحجرة اليسرى تتصاعد اكواب عصير الليمون الى الافواه ، وينساب الحديث في اناقة .

الجرس يدق لان الساعة تشير الى التاسعة والربع .. الجميع يتجهون الى قاعة العزف وشيء من الصمت يسيطر عليهم وكانهم داخلون الى منجم او نفق . وتمضي لحظات تسودها الفوضى ، اذ يبحث « أ » عن مقعده ، ويبتسم « ب » لـ « ج » في عذوبة، ويسعل « د » في وقار ـ وثمة شخص يبحث عن صديقه .

المسرح خال من العازفين .. لا شيء سوى مقاعدهم وقوائم النوتات الموسيقية ، وبضعة الات تستند الى هذه المقاعد كالتشيلو ، ومجموعة من الات الكمان تغط في نوم عميق وهي راقدة فوق الكراسي . وفي المؤخرة تنتظر الطبلة الضخمة صاحبها لهزها هزا .

الثقة عادت الى كل الحاضرين بعد ان استقروا في مقاعدهم وادارو رؤوسهم يمينا ويسارا والى اعلى ـ الى حيث يسترخي الارستقراطيون . الثقة عادت الى الجميع بعد ان نجح « أ » في التفوه بعبارة جميلة أعجبت الحسناء « ن » .. وبعد ان اطمأن « د » الى انه سيقابل المدير « ر » غدا ، بناء على الموعد الذي انتزعه منه الان انتزاعا .. وهكذا تفعل المعجزات !

لا شيء الا الهمهمات ، همهمات الجالسين .. ثم يصمتون فجاة .. وبدون سبب ، وكانهم اكتشفوا انهم في انتظار شيء .. في انتظار المايسترو والعازفين . ويقبل العازفون ، بعضهم يحمل الاته ، والبعض الاخر يلتقط الاته التي كان قد تركها على المقاعد . والمايسترو لم يحضر بعد .

وتتصاعد سيمفونية جميلة لم يكتبها مؤلف ، لم يصغها بيتهوفن او رحمانينوف . سيمفونية تلقائية تنبثق من اوتار الالات التي يجربها العازفون ... ويثبت الكمان وجوده ، وكذلك الكنترباص .. وثمة طرقات تنبثق من الطبلة الضخمة ، وصوت نفير .. سيمفونية تشتم منها « شقاوة » وعبث واستهتار ولا مبالاة ، وتكتشف فيها بعض مقاطع عابرة ستسمعها بعد ذلك في السيمفونية الحقيقية اثناء عزفها .

ما زال بعض السذج يطالعون برنامج الحفل بشغف . البرنامج يقول لهم كيف ان هذا اللحن يعبر عن اشراقة السعادة ، وكيف ان بيتهوفن كتب هذه القطعة يمجد فيها فلانا .. ونسوا ان الاستماع الى الموسيقى يتطلب من المستمع ان ينصت الى اللحن لذاته لا لاي غرض اخر ، ويجب الا يكون متعسفا في ربطه لهذا اللحن بظروف معينة.

وجاء دور العازفين ليصمتوا بعد ان صمت الحاضرون .. العازفون يتطلعون الى الباب الذي سيدخل منه المايسترو .. المايسترو لم يدخل بعد .. لحظة ترقب لا طعم لها ولا لون ولا رائحة .. وبعدها يحس بعض الحاضرين ان المايسترو متكبر، بينما يرى نفر ان هذا الترقب يخدم عنصر التشويق . ولا تخلو قاعة الاوبرا من بعض الموسوسين الذين يظنون ان المايسترو لن يحضر : ربما دهمته سيارة او داهمه مرض مفاجيء ـ ربما تشاجر مع المسئولين في الفرقة .

المايسترو يدخل فجاة ويقضي على كل التكهنات والتفسيرات. ويصفق الحاضرون بشيء من الفتور .. ولو قد كانوا من رواد حفلات الموسيقى الصباحية لصفقوا بحماس .. غير ان الحماس في التصفيق وقف على الشبان والطلبة وحدهم .. اما رواد المساء فيجب ان يصفقوا بحساب ، وفي وقار .. بعض السيدات لا يصفقن على الاطلاق . الازواج يقومون بهذه المهمة بدلا عنهن .

المايسترو يبتسم .. الحاضرون يتململون في مقاعدهم ويقومون بجميع الحركات التي يمكن القيام بها قبل فوات الاوان : سعال ، وانتقال من مقعد الى اخر ، وضحكات خافتة مؤدبة ، وتمخط ، واتخاذ وضع مريح، ووضع البروجرام في جيب السترة ، والتفات الى الجميلة الجالسة في البنوار الايمن ..

*

بدات الموسيقى ..

لا للانغام المتصاعدة الى الافاق العليا ، والضاربة في اعماق الجحيم المستعر .

ويا للاوتار حين تعبر عن عواطفنا المعقدة ..

تعطلت لغة الكلام فلم تبق الا لغة الموسيقى

وتبدا الحكاية .. حكاية يقصها العازفون ويمثلها المايسترو .

واه من المايسترو حين يمثل اللحن ، انه يحيل جسده الى قوس يعزف على الاوتار ويذوب في اللحن حتى يكاد يتلاشى . اللحن معقد ... لا باس . السيمفونية الاخيرة في البرنامج جميلة ، ولذا سيخرج الحاضرون وهم راضون .

اللحن معقد ، وبعض الوجوه الجالسة في الظلام تحاول ان تقنع نفسها بانها تفهم ما تسمع ، ثم تعجز عن اقناع نفسها ، وفجاة تنتقل خواطرها الى ميادين مجهولة ، احد الحاضرين يفكر في المناقشة التي

(*) هذه الصفحة نزعتها من اوراق الذكريات التي سأنشرها هذا العام

دارت أمس بينه وبين زميله في العمل .. الفتاة ذات الرداء الارجواني تصلح شعرها ، وفي نفس الوقت تقرر شراء حقيبة اليد التي رأتها ظهرا في محل « ... » ثمة قلة تعي هذا اللحن المعقد وتعيش معه ، وتهز رأسها ، وتتغير الطريقة التي تتنفس بها ، وتتغير ضربات قلوبها .. هذه القلة هي التي يعزف لها العازفون ، ويعزف لها المايسترو ، وهي التي من اجلها جاء كل هؤلاء بثيابهم الانيقة وحافظات نقودهم المتخمة وعرباتهم الفارهة .

وكما يسيطر رجل المرور على حركة المارين يسيطر المايسترو على حركات العازفين ، وهم يتطلعون اليه ! بعضهم في اعجاب ، والبعض الاخر في وجل . وتتصاعد الانغام حتى يخيل اليك انها ابخرة تنعقد في سماء القاعة سحبا ويتم عقد قران حلو بين الة الكمان والفلوت، بينما ينفصل التشيللو عن الطبلة انفصالا مبرما .. وتتطارح الالات الوترية مع الات النفخ ، وتضحك الة ذات صوت غليظ من هذا المشهد ، وثمة لحظة صمت ، في منتصف اللحن ، لحظة صمت مفاجئة تكمل معنى القطعة كما يكمل الفراغ الموجود في اللوحات العينية معنى اللوحة باكملها . غير ان احد الحاضرين يكح ولحسن الحظ تندمج كحته مع لحن غليظ تتالف معه وتنعقد بينهما اواصر الصداقة .

الرجل الجالس في اول مقعد بالصف الثامن لايفهم مما يسمع شيئا على الاطلاق ، وهو ينتهز اية لحظة مواتية ليخرج منديله ويمر به في رقة على انفه ، ويتبادل معه زميله عبارة فاترة ، ويبتسم في خمول، ثم يثبت ناظريه في الفرقة التي تعزف له .

العرق يتصبب من جبين المايسترو ، ومن جبين بعض العازفين المتحمسين ، والدفء قد انساب الى الالات ، والاوتار قد زادت حساسيتها وسماء القاعة يشوبها دخان سجائر قديمة تختلط بعطر الحسناوات ..

شخص مجهول لانعرف اين يجلس يفهم القطعة التي تعزف اكثر من أي واحد في القاعة ، شخص مجهول لعله يهتز الان في اعماقه كما تهتز اوتار الكمان ، او ورقة شجر في مهب الريح .

صمتت الموسيقى وارخى المايسترو عصا القيادة ، ظن البعض ان القطعة قد انتهت فصفق بحماس .. الذين يفهمون او يتظاهرون بانهم يفهمون ينظرون الى المصفقين شزرا .. المصفقون يتوارون في خجل ولا يستطيعون انزال ايديهم فجاة وبصورة يلحظها الجميع ، فتبقى ايديهم معلقة في الهواء ، وتتشاغل اصابعهم بشيء ، أي شيء ، ويبتسمون في ارتباك ، او استظراف .

تستانف الفرقة اكمال القطعة . وتنتهي ، والذين صفقوا من قبل لايصفقون الان الا بعد ان يتأكدوا من ان القطعة قد انتهت فعلا . الذين يحتفظون بتسجيلات في منازلهم لهذه القطعة يقودون الحاضرين في التصفيق ، ويصفقون بثقة .

باقة من الزهر الابيض تتهادى بين احضان احد السعاة يضعها بين قدمي المايسترو وكانه هو الذي اشتراها ، بطاقة صغيرة جدا مثبتة بين الزهور ، لا نستطيع نحن الجالسين قراءتها ، صاحب البافة يخيل اليه ان الجميع يعرفون انه هو الذي قدم الباقة « الواقع انه دفع فيها ثمنا باهظا » . المايسترو يبتسم وينحني ، ويسلم على عازف الكمان الاول ، « عازف الكمان الثاني يتمنى لو استطاع ان يحل محل العازف الاول في يوم من الايام » . احد العازفين الذين لم نرهم ـ لانه كان في الصفوف الخلفية ـ يتقدم الى الامام ويحيي من بعيد احد معارفه وكانه يسأله : مارأيك في عزفي ؟ لانعرف بالطبع ، فقد كنت ايها العازف تجلس مختفيا وراء صفوف كثيرة من العازفين .

باب القاعة الخارجي يفتح فجاة وبصورة مزعجة ويدخل منه الذين فاتهم سماع القطعة الاولى والذين لم يسمح لهم المسؤلون بالدخول اثناء العزف . يبتسمون ابتسامة ظافرة ، ويجلسون ، تبدو على وجوههم النضارة وعدم الانفعال ، تفصلهم عن الذين حضروا منذ البداية فترة زمنية مقدارها عشرون دقيقة ، فترة فصلت عواطف هؤلاء عن أولئك ؛ سيمفونية اخرى .. ثم استراحة .

*

وفي الاستراحة يتحدث البعض عن براعة المايسترو ، ويؤكد شخص مجهول ان عازف الكمان الاول اثبت براعة هذه المرة ، وانه افضل من عازف العام الماضي ، كل شخص وحيد ، لايثق في نفسه ، يلوذ مرة اخرى باحد الاعمدة ، ويكتفي بملاحظة الناس . الناس يتقدمون من الصمت الذي اجبروا عليه في القاعة فيتكلمون في حماس ، وبلغات مختلفة تلتقط من بينها كلمات « تري جولي .. تانك يو .. اداجيو ـ ازدرافكوفيتش .. الخ .. الخ .. »

الجرس يرن مرة اخرى .. الجمهور يدخل المنجم للمرة الثانية.. مازالت الحان المعزوفات الاولى معلقة كالاشباح في القاعة والات العازفين متوترة لاتحتمل اية لمسة .. وباقة الزهر الابيض تبتسم في ثقة وقد استراحت الى صحبة الات الكمان .

العازفون يدخلون وتبدأ السيمفونية التلقائية العابثة ، سيمفونية التجارب . العازفون يدردشون ، والجمهور يدردش ، وروح التفاؤل تسود القاعة ، فالسيمفونية التي ستعزف معروفة ، وسهلة ، ومملوءة بالفقرات الحماسية ، ودقات الطبول ، ورنين الاجراس . يدخل المايسترو ، يبدو انه اعاد ترتيب شعره الذي تهدل على جبينه قبل الاستراحة .الجمهور يعتدل في مكانه ويلتصت .

*

واغادر القاعة .. مبهورا .. مسحورا .

لم اركب الترام او استقل الاوتوبيس ، وانما عدت الى منزلي تحملني قدماي ، اجتر ماسمعت على مهل ، وفي أناة .

القاهرة — محمد عبد الله الشفقي

صدر حديثا

أبيات ريفية

بقلم عبد الباسط الصوفي

قصائد رائعة للفقيد الذي

كان نسيج وحده فى عالم الشعر

الثمن ٢٠٠ ق.ل ـ ٣٧٥ ق.س — دار الآداب